

حوار حول الحرية

شخصيات المحاوره:

صونيا

سليمان

هيام

حسام

سوزي

صونياً: أهلاً بكم في هذا المنتدى الأدبي المتواضع الذي يستمدّ قيمته من حضوركم فأنتم جوهره وأعراضه، أنتم سمعته وإنتاجه وأنتم بهاؤه ولألاؤه.

حسام: بل نحن ضجيجه وقعوته التي تملأ بطون الصحف ضمن قراء قلائل يستحسنون. إلى قراء كثير يستقبحون بل يستغربون فيشتكون لرؤساء التحرير قائلين لماذا تزعجون المواطنين المطمئنين بأفكار أولئك المهلوسين الشعبويين.

سوزي: وهل كل من يحاول تحريك مياه المستنقع الساكن وهزّ أهل الكهف ليستفيقوا من سباتهم الحضاري العميق يعدّ هجيناً وشعوبياً؟

حسام: هذه حال الدّار منذ ألف سنة ونيف فالفارابي وابن رشد والرازي شعوبيّون، والمنتبي قرمطي من أتباع أبي طاهر، وابن المقفع زنديق من أتباع مزدك، وأبو نواس لا أصل له ولا فصل ويبقى المماليك اللقطاء هم حماة الديار والأتراك البرابرة هم المحافظون على دار الخلافة والمغول الذين اعتنقوا الدين الحنيف هم المؤتمنون على كرامة الأرض والعرض.

هيام: أين ذهبت بالجيش الأنكشاري الذي نشر هيبتنا في كل مكان بل أين ذهبت بحكامنا الجدد الذين يحصون بعسهم أنفاس العباد ليستطيعوا كما يدّعون المحافظة على حدود البلاد.

صونياً: جميعنا يعرف أننا نعيش مأزقاً حضارياً. بعضنا ذهب في تغرّبه بعيداً حتى انقطعت أكثر الجذور التي تربطه ببيئته وثقافته. وبعضنا تصنّم في جموده وغدا يعبد تراث العصور الوسطى وكأنه طوطم، الأمر الذي جعله غريباً عن بيئته الأصلية أيضاً.

سليمان: دعونا نمحصّ الأمور بدقّة. فلنسأل أنفسنا ما هي مشكلاتنا؟

سوزي: مشكلاتنا الكذب فنحن نظهر شيئاً ونبطن شيئاً آخر.

هيام: هذا صحيح فنحن نكثر الكلام في الوطن والوطنية وكل واحد منا يفكر بطائفته وعشيرته.

حسام: بل نحن نكثر الكلام في الشرف والفضيلة والمال الحلال وكل واحد منا يتماهى بعلي بابا وكزانوفا وراسبوتين وإيفان ديسيتوفسكي.

سليمان: دعونا نفكر بمنهجية موضوعية فنعطي الإنسان ثلاثة أبعاد، الإنسان الفرد والإنسان المجتمع والإنسان الكوني. نحدّد مشكلة الإنسان الفرد بالحرية ومشكلة الإنسان المجتمع بالعدالة ومشكلة الإنسان الكوني بالشمولية.

سوزي: وإذا أردنا بحثاً موضوعياً فلنبدأ بمشكلة الإنسان الفرد مع الحرية.

صونيا: بل فلنبدأ بأن نطرح على أنفسنا ذلك السؤال البسيط المعقّد. ما هي الحرية؟ أو بأن نسأل أنفسنا كيف نفهم الحرية؟

هيّام: أنا كصحافية أفهم الحرية قدرة على إيصال أيّ معلومة أشاء إلى القراء، أو بكلام آخر أن أستطيع محاورة القراء وكأنني أحاور نفسي بمنتهى الصراحة والبساطة والمحبة والحميمية.

حسام: وأنا كشاعر أفهم الحرية في القدرة على نقل أحاسيسي وأفكاري وأحلام يقظتي ورؤاي للناس دون أي أحساس بالخوف أو الخجل ودون أن أضطر إلى إستعمال الرموز والأساليب الباطنية ثم يقدّم لي الناس إنطباعاتهم بصدق وصراحة دون تملق أو حقد أو إزدواجية.

سوزي: أنا أفهم الحرية في قدرة الإنسان على خلق نفسه باستمرار خلقاً جديداً فلا يكون مرتهاً لماض أو لحاضر. قدرة الإنسان على تجاوز نفسه كلما أراد ذلك هذه هي الحرية.

صونيا: لماذا لا نقول إنّ الله شرّف الإنسان بالحرية لأنه خليفته في هذا الوجود فهل هناك موجود في هذا الوجود يستطيع أن يملك العقل الحرّ غير الإنسان؟

سليمان: برأيي لا يمكن فهم الحرية خارج إطار العقل. العقل والحرية أقنومان في أقنوم واحد.

سوزي: مقولة الأقانيم الثلاثة في أقنوم واحد لم نفهمها بعد ولكننا مع ذلك قبلناها فما بال الأقنومين في أقنوم واحد؟

سليمان: دعونا نبسط الموضوع ونتدرّج في فهمه للإحاطة به. أليس الإنسان هو الموجود الوحيد في هذا الوجود الذي يملك عقلاً يحل ويبتدع ويستدل ويستقرىء؟ هل هناك موجود وحيد في هذا الوجود غير الإنسان يكون فعله خلقاً وإبداعاً وليس ردّة فعل لعامل غرائزي أو حركي؟

صونيا: هذا شيء لم أفهمه. ألا يستطيع الحيوان أن يخلق عمله فيطير أو يأكل أو يفترس أو يقفز.

سليمان: هذا ما نظّنه للوهلة الأولى ولكن الحيوان بالواقع يتصرف تحت تأثير دوافع مفطور عليها تكرر لها سلالاته المتعاقبة كما هي. والموجودات الأخرى تتحرك بناءً على قوانين مركوزة في جوهرها تتكرّر باستمرار.

سوزي: ألم يكن إله البحر عند الإغريق يملك القدرة على تحريك أمواجه كيفما يشاء وساعة يشاء فيساعد بعض البحّارة وينتقم من البعض الآخر؟ أليس هذا ما حصل مع أوليس في طريق عودته كما أخبرتنا الأوديسة؟

حسام: وكذلك آلهة الحبّ أفروديت. ألم تكن تغوي بعض الحسنات وتهدي البعض الآخر. أليست هي المسؤولة عن إغواء هيلين الإسبرطية لتعشق باريس الأمير الذي فجرّ حروباً ودمرّ مدنأ وألهم الكثير من القصائد.

حسام: اسمحوا لي أن أسأل نفسي ثمّ أسألكم عن قضية خلق العقل للفعل أو عن ردّة الفعل فأنا مثلاً عندما أنظر إلى هيام بعينيها الخضراوين اللتين يتدفّق منهما شلالا نور وحنان أشعر بدفء يغمرني أشعر بأنّي أقطع المحيط على متن قوس قزح فيغمرني ذلك بالنعاس يغمرني بالحلم بالذوبان في ضمير هذا الكون الشاسع. هل هذا الإحساس هو فعل أو ردّة فعل؟

هيام: إن كان هذا ردّة فعل فأنت تقيّم عينيّ تقييماً كبيراً وهذا شيء إيجابي وبناء تستحق عليه الشكر.

سليمان: أنا أفعل بالآخرين وتثمر أفعالي فرحاً في قلوبهم وصوراً ملونةً في كلماتهم ودفناً ناعساً في أجفانهم وإيقاعاً حنوناً في أصواتهم إذن أنا موجود.

سوزي: أنا لا أستطيع أن أرى صورتني إلا في عيون الآخرين ولا أسمع كلماتي

إلا من أفواه الآخرين ولا أنتبه إلى نبضات قلبي إلا عندما أصافح أيادي الآخرين
هذا شيء غريب!

صونيا: ردّة فعل حسام هي في الواقع ردّة فعل وفعل في نفس الوقت. إنها الإنفعال
الذي يولد فعلاً أي الخلق ليس من العدم بل الخلق من خلق سابق.

سليمان: ولكنّ العدم حالة وجودية ولو لم يكن كذلك لما أدركناه فالإنسان هو ابن
الوجود الذي لا يستطيع أن يدرك إلا ما هو موجود.

حسام: هناك مفاهيم في هذا الشرق العتيق أن الأوان لتغييرها لأنها تسيء الى
الإنسان في كرامته الإنسانية فالإحساس بالجمال مثلاً هو إحساس خيّر يولد في
النفس فرحاً وأنساً وشعوراً عميقاً بالإرتباط بالغير بل يولد أحلام يقظة كثيراً ما
تلهم صاحبها للتخليق في الأعالي للإنعقاد من قفص الجسد والإنجذاب الى ذلك
الواحد الذي هو مصدر كل حبّ وينبوع كل جمال.

سوزي: أنا أفهمك جيداً ففي لحظات نادرة يتقاطع خطّ الجمال الكليّ بخطّ الجمال
الجزئيّ تقاطع الوحدة بالكثرة، الله بالإنسان. ربما استطاع حسام أن يمسك بهذه
اللحظة ويتحسّسها بتلذذ يصل إلى حدود الإنعقاد.

صونيا: الإنعقاد من الشيء وأنت مرتهنّ إليه هذه هي المعجزة عندما تنعقد النفس
من إطار الجسد وهي لا تغادره، هذا هو الإنعقاد الكبير.

سليمان: أنا لا أشكّ بأنّ النفس لا تستطيع أن تمارس وعيها وعملها إلا في إطار
الجسد وأن تنعقد منه معناه أن تخضعه لقوانينها ولا تبقى أسيرة قوانينه. عندها
يتجوهر الجسد بتجوهرها وتنشّف كثافته بشفافيتها وتتلاّأ أركانه بلألائها.
أظنّ هذا ما رآه حسام في عيني هيام.

هيام: أنا لا أدعي أنني وصلت إلى هذا المستوى قد تكون عيناى تحدّقان إلى
الشمس ولكنّ رجليّ لا زالتا تتخبّطان في وحول تناقضات الحياة اليومية. لا زلت
أخدم حاجات جسدي أكثر بكثير مما أخدم حاجات نفسي. لا شكّ أن حسام هو الذي
وصل وانعكس نور وصوله على مرايا عيوني فظنّ النور نابعاً من عيوني
سامحه الله.

سليمان: جعلني كلامكم أمسك بخيط دقيق في مسألة الحرية لم أكن قد تلمّسته من قبل وهو تقييم العمل. الإنسان وحده القادر على تقييم عمله لأنه وحده القادر على خلق عمله. وإذا ما كان خلق العمل هو الحرية في أن نعمل الشيء أو ضدّه فتقييم العمل هو إحساسنا الأخلاقيّ تجاه هذا العمل الذي خلقناه وهذا هو معنى الأخلاق وبذلك أعتذر من الأنسة ليليان في مسألة الأتومين الحقيقية. إن الأقاليم ثلاثة الحرية العقل والأخلاق والثلاثة جوهرٌ واحدٌ. أنا أعقل نفسي وأعقل الأشياء خارج نفسي إذن أنا أخلق عملي من ذاتي. بيد إرادتي أمزج تراب انفعالاتي ومشاعري وأحلامي ثمّ أنفخ فيها من عقلي فأصيرها خلقاً سويّاً له كيانه المستقلّ وصيرورته الذاتية المستقلة. هذه هي شروط الخلق والإبداع وهذا العمل الذي أخلقه أنا أقيّمه، أزهو به أو أخجل منه، أفرح به أو أشقى معه، ومعياري في ذلك هو أن أزرع عملي في تربة الآخرين فإذا نما وأثمر فرحاً وصدقاً وتطوّراً وارتقاءً أفرح به وأفخر وإذا أثمر عقداً نفسية وإزدواجية وكذباً أشقى به وأخجل.

سوزي: معنى كلامك هذا أن الحسّ الأخلاقي حسّ ملازم للإنسان الحرّ في جميع تصرّفاته وأطواره.

سليمان: هذا صحيح الإنسان كائن أخلاقيّ كما هو كائنٌ إجتماعيّ كما هو كائنٌ عاقلٌ حرٌّ ولذلك من يصادر عقل الإنسان يكون قد صادر حرّيته ويكون قد صادر إحساسه الإخلاقيّ وإحساسه الإجتماعيّ أي إنتزع منه هويّته الإنسانية فأصبح هيوليّاً بلا صورة، شبح بلا روح.

صونيا: ولكن كيف يصادر عقل الإنسان ومن هي الجهات التي تصادره ولماذا؟
حسام: هو ذلك الشيطان الذي اسمه القمع والإرهاب والإرتهان.

سوزي: والإرهاب هو إثارة غريزة الخوف فنتضخّم وتنمو وكأنّه لا يعود هناك غرائز غيرها.

هيام: إسألوني عن غريزة الخوف فأنا أدري الناس بها. منذ عدّة سنوات حاولت الإنتحار هرباً من كوابيس الخوف ولكنّ الخوف نفسه ردعني ففشلت المحاولة في لحظاتها الأخيرة.

حسام: أيّ عجب هذا؟ فتاة تزرع الفرح في قلب الحجر تحاول أن تنتحر لا شكّ

أن الأسباب كانت وجيهة وضاعطة.

هيام: يوماً شعرت أن ما أكتبه أصبح كذباً ورياءً. أنا أكذب على نفسي قبل أن أكذب على القراء، لماذا؟ كي أتملق تلك الأشباح التي خلقتها تطاردني لتكفّ عن إلحاق الأذى بي هكذا فهمت الموضوع. لم أعد أجرؤ على السهر وحدي لأتأمل وأكتب. كنت أشعر أن في الليل عيوناً تخرقني تنبش في أعماقي بقساوة. أصبحت أخبئ أحاسيسي وأفكاري عن نفسي أكثر مما أخبئها عن الآخرين. لم أعد أجرؤ أن أحملق في عيون الآخرين كما تعودت، أخاف عيونهم ثم أخذت أتخيل أنهم يرتابون بكلامي وتصرفاتي لأنني أنا نفسي أخذت أرتاب بكلامهم وتصرفاتهم. أول من شعر بذلك كان والدي قال لي يوماً: ماذا تفعلين بنفسك؟ هل فقدت إحساسك بالكرامة أكتبي ما تفكرين به أو اعتزلي وامتهني مهنة أخرى. أيّ عار هذا الذي أراه وأسمعه وأقرأه. يوماً سافرت إلى كندا بحجة التحصيل العلمي وعدت بعد ثلاث سنوات بشهادة جديدة ولكن أشباح الخوف لا زالت تطاردني صدقوني.

سوزي: تعرّفت على شبّان عرب في السوربون كانوا مهذّبين أنيقين مثابرين على واجباتهم ولكنهم دائماً صامتون. يحتدم الجدل حول الأصولية وحقوق الإنسان وأوضاع السجناء وحالة الصحافة وهم دائماً صامتون إذا ما نطقوا ينطقون بعبارات عامّة، وعندما يصادف ويقول أحدهم كلاماً له طعمٌ ولون كنت أحسّه خائفاً ينظر عن يمينه ويساره وكأنّ عيناً سريّة تراقبه وكأن شبحاً يترصدّ به كنت أناقش هذه المسألة مع نفسي وأتعبّب. هل يمكن أن يخاف الإنسان العربي حتى في بلاد ديمقراطية علمانية تؤمن بحقوقه وترعاها وتدافع عن حرّيته في التعبير والتفكير والممارسة؟ هل بلغ من تأثير الخوف على المواطنين العرب أنه يرافقهم أينما ذهبوا فهم تحت مظلة رعبه أينما كانوا؟

حسام: لهذا السبب لا يوجد صحيفة عربية واحدة تستطيع أن تبيع أكثر من خمسين ألف نسخة رغم أنّ القراء العرب بالملايين سمعت البعض يستشهد بذلك ليبرّر أنّ العرب لا يقرأون ولكن قبل أن نسأل هل العرب يقرأون أو لا يقرأون لنسأل أنفسنا وهل يوجد مطبوعات عربية تستحقّ أن تقرأ؟

سليمان: وهل نسيتم أنظمة التعليم التي يعود لها الفضل في قولبة فكر المتعلم وتفريغته وتعليبه ليغدو صاحبه موظفاً لا مثقفاً، بل ليغدو مزدوج الشخصية يعيش بعض الحداثة على الورق وفي بطون الكتب ويعيش واقعاً سلفياً بين ظهراني

المجتمع.

هيام: بل الفضل الأكبر يعود للبترول العربي الذي جعل من الدولة ربّ العمل الوحيد في المجتمع وبذلك ارتهن المتعلم كلياً لإرادتها وتقولب بقالب رغباتها ومناهجها.

سليمان: هذا ما قصدته بسلب عقول الناس ومصادرة حقهم في التفكير الحرّ. لا تفكّروا نحن نفكّر عنكم، لا تتواصلوا مع الحداثة الكافرة في كل شيء إلا في تقديم الرفاهية. حجّبوا نساءكم واذهبوا في إجازات سنوية إلى جزر الكناري والريفيرا واستمتعوا بما لذ وطاب. ركّبوا حواجز في عقولكم ودشّات فوق سطوح بيوتكم فالإنغلاق الفوقيّ والإنفتاح التحتيّ هذا هو المطلوب بامتياز ولأجله وجد في السماء مبدأ العقاب والثواب.

حسام: لنعد إلى الخوف، فلي معه قصص.... عندما نشرت ديواني الأول "نساء من نور" عشت تجربة غريبة لا بدّ أن أطلعكم عليها. أخذت النساء تتملّقني وتقترب مني بحميميّة عندما يكّنّ معي على انفراد ويظهرن الجفاء عندما يكّنّ برفقة أزواجهنّ، والرجال بدورهم كانوا يودون الاستبحار في بحث الشؤون النسائية معي وهم منفردون ولكنهم عندما يحادثوني وهم برفقة نساءهم كثيراً ما يقولون إنّ الشعر توهم لا حقيقة وإن حقّ المرأة بأن تتمتع بشخصية حرّة مستقلّة متكاملة مجرد ديكور جماليّ القصد منه المزيد من الإثارة والترغيب. منذ ذلك الوقت عرفت كم هي قضية المرأة مرتبطة بقضية الحرية وأنه طالما أن الرجل العربيّ يعيش إزدواجيّة في قضية المرأة فهو لن يتحرّر أبداً.

سوزي: ماذا تقصد بإزدواجيّة في قضية المرأة؟

حسام: أنتي الكريمة، يوجد في مؤخّرة رأس الإنسان العربي نوعان من النساء، واحدة باردة منظوية خجولة مطيعة تتلّون بألوان رغبات سيدها، أفكارها وتصرفاتها سلفية تصلح لتكون زوجة مثاليّة وأمّ أطفال نموذجية، وأخرى مثقفة فنّانة تواكب روح العصر ومسيرته وتصلح لتكون عشيقّة يرمى عليها الذهب والحريير ونادر الجواهر والعطور وكذلك القصائد والكلام الثوري.

سوزي: إذن المرأة المثقفة في بلادنا تصلح لتكون عشيقّة ولا تصلح لتكون أمّاً وزوجة؟

حسام: هذه هي الحقيقة يا أنستي فالثقافة في بلادنا ديكور جميل يساعد أصحاب البترودولار على العيش بإسترخاء ممتع وعبثية حضارية منعشة.

سليمان: حتى بعض التعابير في لغتنا تشير إلى ذلك، فكلمة لا تتفلسف مثلاً عندما توجّه إلى مثقّف من قبل ثريّ أو متندّر معناها الحقيقي أقفل فمك وتوقّف عن الثرثرة. أمّا إذا نطق بها رجل من عامّة الناس فيصبح معناها لا تتزندق وتتفوّه بكلام مخالف لتعاليم الأديان فنصوصها مقدّسة وكلّ محاولة للزيادة عليها أو للتنقيص منها يعتبر بدعة وكلّ بدعة ضلال وكلّ ضلال في نار جهنم.

صونيا: ولكن لا يجوز الزيادة على الأديان أو الإنتقاص منها.

سليمان: المقصود الزيادة على الشروحات الدينية التي كتبت في عصور الإنحطاط فالناس بالحقيقة تتعامل مع تلك الشروحات ولا تتعامل مع النصوص الأصلية. والإنحطاط مكرّس تحت مظلة دينيّة وهذا ما يؤخّر النهضة في بلادنا حسب اعتقادي أو ما يمنعها جملةً وتفصيلاً.

هيام: نعود الى الخوف والتخويف فالذي يحاول الخروج عن الشروحات الدينية التي كتبت في عصور الإنحطاط يخوّف باتهامه بالزندقة، والذي يحاول الخروج عن منهجية السلطة في الفهم والتعاطي يخوّف باتهامه بالخيانة أو العمالة، والذي يحاول أن يخرج عن شروحات أساتذته في المدرسة والجامعة يخوّف باتهامه بالفوضوية والتخلف، وفي هذا الواقع المكفهر يسمح تجاوزاً لبعض الشعراء بالخروج عن المألوف لكي تكون قصائدهم مواداً تندر لأصحاب البترودولار يتفكّهون بها، وهم على موائد الشراب يعربدون أو بين أحضان المومسات يستفحلون.

صونيا: ويصبح الخوف سيّد الموقف حتى في علاقة الناس ببعضهم فالرجل مثلاً إذا أعجب بإمرأة ورغب بها خاف من مكاشفتها بحقيقة مشاعره فقد تستغل تلك المتعالية واقع الحال وتجعل منه مادّة تندر وتفكّه في الصالونات. وحال المرأة أسوأ في حال إعجابها برجل والرغبة في التواصل معه فهي تخاف إن كاشفته بالأمر أن يظنّها عاهرة أو مستغلة تريد ابتزازه أو طالبة زواج تريد اقتناصه وبالعموم وفي أغلب الحالات الإرتياب هو سيّد الموقف.

حسام: من هنا نعلم أن المتدينين بالطقوس هم أبعد الناس عن حقيقة الدين لأنهم

دائموا الأرتياب بأحاسيسهم وبأحاسيس الآخرين، فالآخر عندهم مذنب حتى يثبت العكس. إذا نظر الرجل لإمرأة فهو يشتهيها ويغتصبها نفسياً حتى يثبت العكس. وإذا حدّق الفقير بغني فهو يحسده ويكرهه ويريد سرقة أمواله حتى يثبت العكس. وإذا أبدع شاعر قصيدة فهو يريد أن يحرض الناس على الفجور والإباحة حتى يثبت العكس. وإذا دبج كاتب مقالة فهو يريد أن يغمز في قناة الحاكم حتى يثبت العكس. أمّا أن يعطي الإنسان لأن العطاء دونما أي غاية متعة نفسية لصاحبه وغبطة روحية لفاعله فهذا هراء وأي هراء.

سليمان: لا أعتقد أننا أحطنا بموضوع الحرية من كل جوانبه هل نسيتم أن الحرية في جوهرها هي تناغم وانسجام مع قوانين العقل فهي ابنة النور الذي كتب عليه أن يصارع الظلام باستمرار.

صونيا: لا تذكرنا بالظلام يكفينا إنقطاع التيار الكهربائي عدّة مرات في اليوم الواحد ونحن في بداية الألفية الثالثة.

حسام: أليس الكبت ظلاماً داخلياً يلتهم آخر قطرة من نور في عقولنا وضماننا؟

سوزي: أليس الإرتهان ظلاماً يفقدنا بصائرنا فنغدو ضلال أناس وليس أناساً حقيقيين.

صونيا: كأنّ الدائرة عادت إلى نقطة البيكار. الحرية ما هي وكيف نفهمها؟

الجميع: الحرية ما هي وكيف نفهمها؟